يوم الجـــلاء ...!

للأستاذ على الطنطاوى

— ٢ —

فى عمر الإنسان ساعات هى العمر ، تفنى الليالى وتنقضى الأعمار وتخلد هذه الساعات ذكرى فى قلوب البنين . وفى تاريخ الأمم أيام هى التاريخ ، تمرّ السنون متحدرة فى دَرَك الماضى ، مسرعة إلى هوّة النسيان ، وتبقى هذه الأيام جديدة لا تبلى ، دانية لا تنأى ، مشرقة لا تغيب ... وللإنسانية أيام هى ركن الإنسانية ، لولاها ما قام لها بنيان ، ولا ثبت لها وجود ... أيام قد عمت بركاتها ، وشملت خيراتها البشر جميعاً ... أيام هى ينابيع الخير والحق والعدل فى بيداء الزمان ؛ وهى المفخرة لأمة أرادت الفخار ، وما أكثر هذه الأيام الغرّ فى تاريخنا ! تلك الأيام التى أفضلنا فيها على العالم كله ، وسمونا به إلى ذرى الحضارة : يوم الهجرة ، وبَدْر ، والقادسية ، واليرموك ، ونهاوند ، وأيام قتيبة وابن القاسم فى المشرق ، وعقبة وطارق فى المغرب ، ومحمد الفاتح فى الشمال ، ويوم عين جالوت ، وحطين ، واليوم الأغرّ الذى أعاد لنا يوم حطين ، وكان فجر اليوم الجديد للعرب بل للمسلمين أجمعين : (يوم الجلاء) !

إنه يوم مُعْلَم فى موكب الزمان ، إنه شَعَارَةٌ من شعائر المجد يقف عليها الفلك كلما دار دورته وقفةً فيها خشوع وفيها فرح وفيها إجلال . إننا قد ابتهجنا بالجلاء وهتفنا له ورقصنا وصفقنا ، وملأنا منازل العربية أنساً به وفرحا ، ولكنا لم نعرف قدر يوم الجلاء ، إنما يعرفه من سيأتى بعدنا ، يعرفه غداً من ينعم بظلّ هذه الشجرة التى نبتت اليوم . هنالك وقد امتدت فروعها ونمت حتى ظلّلت بلاد العربية والإسلام ، يقول أبناؤنا: يا ما أكرم ذلك القضيب الطرىّ الذى صار الجذع الضخم لهذه الدوحة الباسقة ! وهنالك يبلغ من خطر هذا اليوم أنه سيمجد الجيل الجديد شيوخاً قد لا تكون لهم مزية إلا أنهم رأوا هذا اليوم بعيونهم ، وعاشوا فيه حقيقة لا بالخيال . وسيجلس هؤلاء الشيوخ فى صدور المحافل يحدثون الناس عن الذى رأوه ، ويصفون كيف بدت تباشير الفجر المبارك ، ليوم العروبة الجديد ، وسيكون لكل حركة تحركناها اليوم وكل كلمة قلناها ، معنى كبير لا نتصوره نحن الآن ! سيصير هذا اليوم بتفصيلات وقائعه ودقائق أحداثه ملكا للتاريخ الذى يقدس كل ما يدخل حماه ، ويومئذ يُعرف (يوم الجلاء) !

* * *

وقد زعم المداة أننا فرحنا هذا الفرح لأننا أعطينا ما لم نكن نحلم به ، كالفقير المسكين إذ يطلب فلساً فيمنح ديناراً ، كلا ! إننا لم نأخذ إلا الأقل من حقنا . إن الجلاء ليس عجباً ، وإنما كان العجب العجاب أن يكون فى ديار الإسلام احتلال . العجب أن لا نحكم نحن الأرض ونحن خلقنا من أصلاب من حكموها ، وورثنا القرآن الذى به دانت لهم الأرض !

ولكنا فرحنا لأن الله جعلنا نقرأ هذا التاريخ الماجد العظيم قبل أن يكتب ، وأن ندرك أول الاقبال كما شهدنا آخر الادبار ، فنحن المخضرمون ... وإذا كان نور التوحيد قد سطع من الحجاز فكانت المدينة عاصمة الراشدين ، ثم مشى إلى دمشق فصارت عاصمة الأمويين ، فكذلك كان مطلع شمس الحرية ، بدت من الحجاز والجزيرة فكانت أول قُطر لنا خلا من أجنبى ، ثم امتدت أنوارها إلى دمشق ... وهى تمشى الآن إلى القاهرة وإلى بغداد ، ثم تسلك طريق الأندلس ، الفردوس الاسلامى المفقود الذى سيعود ، والطريق الآخر الذى يصل إلى الـ (باكستان) ديار الأطهار[1] ، فلا يبقى فى ظلال المآذن كافر يحكم بغير ما أنزل الله !

وزعموا أن هذا الجلاء قد أتى عفواً بلا تعب ، وأننا لم نرجف عليه بخيل ولا ركاب ، ولولا أنها جاءت به مصلحة الانجليز ما جاء ! وكذب هؤلاء الزاعمون ولؤموا ...

كذبوا والله ... أوَ فليخبرونى : أجاهدت أمة على ضعفها وقلة عددها ، وعلى كثرة عدوّها وقوته مثلنا جاهدنا ؟ إن فى

(١) وتلك ترجمة الكلمة ، والباكستان أمنية كل مسلم فى الهند ، يقودهم إلى تحقيقها مولانا محمد على جناح لا يشذ عنها إلا أبو الكلام آزاد وقليل من المسلمين معه .

مصر العزيزة سبعة عشر مليونا ، وفى أندونسية سبعين ، وفى الهند مائة ، ونحن لا نعدّ كلنا بدونا وحضرنا ، رجالنا ونساؤنا ، أكثر من ثلاثة ملايين ، وقد ابتلينا بفرنسا ذات الطيش والحمق والملايين المائة والعُدَدَ والآفات .. فسلوا الفرنسيين : هل أرحمناهم يوماً واحداً من ميسلون إلى يوم الجلاء ؟ أما ثرنا على فرنسا وكسرنا جيوشها فى خمس مواقع ؟ سلوا الجنرال ميشو القائد الذى حارب الألمان عند المارن: أما أباد حملته مجاهدون منا ، لم يتعلموا فى مدرسة حربية ولا درسوا فنون القتال ، وغنمنا عتادها كله فلم يعد من الحملة بعد معركة الزرعة إلا مائتان وخمسون جندياً فقط ! سلوا النوطة عن معارك الزور وعما صنع حسن الخراط ؟ سلوا النَّبك وجبالها ، وحماة وسهولها ، وجنرالات الفرنسيين عن بطولة قوادنا الأبطال ، فوزى القاوقجى ، وسعيد العاص ، والبطل المفرد سلطان الأطرش ، وعشرات وعشرات إن لم أعدهم اليوم ، فما يجهلهم أحد !

أما ضرب الفرنسيون دمشق أقدم مدن الأرض العامرة بالقنابل مرتين ، فى عشرين سنة ؟ أما أحرقوا حيّ الميدان وهو ثلث دمشق ودمّروه فلم ينهض من كبوته إلى اليوم ؟ أما أضرموا النار فى جرمانا والمليحة وزبدين وداريا ودير مجدل والهيجانية والغزلانية وتلّ مسكن ودير سلمان وقرى أخرى لا يحصيها من كثرتها العدّ ؟

بل سلوا شوارع دمشق ودروبها وساحاتها ، عن إضراباتها ومعاركها ومظاهراتها ؟ أما لبثت فى مطلع سنة ١٩٣٦ خمسين يوما مضربة لا تجد فيها حانوتا واحداً مفتوحاً ، مقفرة أسواقها كأنها موسكو حين دخلها نابليون ، فتعطلت تجارة التاجر ، وصناعة الصانع ، وعاش هذا الشعب على الخبز القفار ، وطوى ليله من لم يجد الخبز ، ثم لم يرتفع صوت واحد بشكوى ، ولم يفكر رجل أو امرأة أو طفل بتذمر أو ضجر ، بل كانوا جميعاً من العالم إلى الجاهل ، ومن الكبير إلى الصغير ، راضين مبتهجين ، يمشون ورؤوسهم مرفوعة ، وجباههم عالية ، ولم نسمع أن (دكاناً) من هذه الدكاكين قد مس أو تعدى عليه أحد ، ولم يسمع أن لصاً قد مدّ يده خلال هذه الأيام إلى مال ، وقد كانت الأسواق كلها مطفأة الأنوار ليس عليها حارس ولا خفير ، فهل قرأ أحد أو سمع أن بلداً فى أوربة أو أميركة أو المريخ يسير فيه اللصوص جياعاً ولا يمدون أيديهم إلى المال المعروض حرمة لأيام الجهاد الوطنى ؟ ولقد بقى الأولاد فى المعسكر العام فى المسجد (الأموى) أياماً طوالا يرقبون وينظرون ، فإذا فتح تاجر محله ذهبوا فأغلقوه .. ففتح (حلوانى) مشهور ، فذهب بعض الأولاد فحملوا بضاعته ، صدور (البقلاوة والنمورة والكنافة) إلى المسجد ، وتشاوروا بينهم ماذا يفعلون بها ؟ فقال قائل منهم : نأكلها عقاباً له ! : اخرس ويلك ، هل نحن لصوص ؟ ثم أرجعوها إليه بعد دقائق وما فيهم إلا جائع ! !

فهل قرأتم أو سمعتم أن صبيان باريز ولندن ونيويورك فعلوا مثله ؟

وقد عمد الفرنسيون آخر أيام الإضراب إلى فتح المخازن قسراً ، فكان أصحابها يدعونها مفتوحة ولا يقتربون منها ، وفيها أموالهم التى تعدل أرواحهم

و (التبرعات) ؟ ألم يكن الناس يعطونها من غير أن يطلبها منهم أحد ؟ ألم يكونوا يتسابقون إلى دفعها ؟ ألم يرفض كثير من الناس أخذ (الاعانات) ويقولوا : اعطوها غيرنا ممن هم أحوج إليها منا ، نحن نجد طعاماً هذا النهار !

لقد وقع هذا وشاهدته أنا مراراً ، فأىّ وطنية أعظم من هذه الوطنية ؟ وأى اتحاد أوثق من هذا الاتحاد الذى تصبح فيه المدينة كلها أسرة واحدة ؟

والبطولة والجهاد ؟ ألم يفعل الشاميون الأفاعيل ؟ ألم يهجموا على النار والحديد ، ويقاوموا بالحجارة أروع وأبشع ما وصلت إليه حضارة الغرب من ضروب التقتيل والإهلاك والتدمير ؟ ألم يفتح الأطفال صدورهم للرصاص ؟ ألم يصمد الفتية العزل للجيش اللجب لا يزولون حتى يزول عن مكانه هذا الجبل ، ثم يصدمونه صدمة الند للند ، ثم لا ينجلى الغبار إلا عن حق يظفر أو شهيد يقتل ، أو جريح يؤسر ؟ ألم تلبث دمشق مدة الانتداب

وهي في حرب ساحتها شوارعها وميادينها، لا تكاد تخلق منها الخنادق والأسلاك والرشاشات والدبابات حتى تعود فتظهر مرة أخرى، ولا تهدأ النار في ركن من أركانها حتى يندلع لسان النار في ركن آخر، ودمشق ثابتة على جهادها ؟

ألم يشيّع الأمهات أبناءهن إلى المقبرة ضاحكات هاتفات ؟ ألم يجاهد الطفل الصغير، والمرأة العجوز، والشيخ الفاني ؟ ألم تمتلئ السجون بالأبرياء، ألم تضق المقابر بالشهداء ؟

فهل تكلم تاريخ هؤلاء الفرنسيين في آذانهم ؟ هل عرفوا لهذا الشعب حقاً، هل قدروا له تضحيته، هل رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم حينما كانت تجوز بهم مواكب شهدائه ؟ هل خشعت قلوبهم حينما رأوا مسيل دمائه ؟ لا . إنهم نسوا تلك الدعوى الكاذبة، دعواهم أن أجدادهم هم الذين أعلنوا حقوق الإنسان، وأنهم غسلوا بدمائهم صفحة الاستعباد والاستبداد، ونسوا ما كتبه روسّو وڤولتير ومنتسكيو، وما قاله ميرابو وسيّيس ولافايت، وما كان يكذب به الفرنسيون (أيام ثورتهم تلك) على الشعوب، إذ يعلنون أنهم نصراء المظلومين !

إني ماخططت هذه الكلمات لأؤرخ فيها جهاد الشام، فانها تؤلف فيه الأسفار الضخام، ويخلد حديثه على طول المدى، وما ذكرت نبأ إضراب الخمسين، لأتقصى أخباره، وأجمع حوادثه، وإنما أردت أن أردّ كذبة ما زلنا نسمعها حتى من الأصدقاء ...

وما عظمة جهادنا في هذا الإضراب الشامل وحده ؛ ولا في المظاهرات الدامية، ولا في القتال والنضال ؛ بل العظمة في هذه التربية الوطنية العجيبة التي أثبت الشعب العربي في الشام أنه بلغ فيها غاية الغايات، فكان في اتحاده واجتماعه على الفكرة الواحدة وتحمله الجوع والألم في سبيلها، وإقدامه على الموت من أجلها، مثلا للشعوب القوية الحرّة. وما ظنك بشعب فقير يدع فيه التاجر مخزنه، والعامل مصنعه، والطالب مدرسته، ثم يؤلفون جميعاً صفاً واحداً، فينتزع حقه من أفواه البنادق، ومنافذ الدبابات ويسجل جهاده على ثرى وطنه بمداد دمه ؟

وما ظنك بشعب تودع فيه المرأة ولدها، ثم تدفعه إلى الشوارع ليجاهد ويناضل، ثم يمضي إليها، ثم يحمل إلى دارها ميتاً، فتغسله بيدها، وتخرج في جنازته تهتف وتزغرد، ودموعها تسيل على خدّيها، وتدع المرأة أولادها بلا عشاء لتدفع المال للفقراء من أبناء الوطن ...

أيقال لهذا الشعب إنه استرد حريته، وجلا عن أرضه عدوّه: لقد جاءك الجلاء عفواً وبلا تعب ؟

كلا . إنها ما جاهدت أمة مثل جهادنا، ولا حملت مثل ما حملنا . إنا قد رأينا الموت، وألفنا الفقر، واعتدنا الجوع، وأصبحت مدينتنا بلاقع، وأهلها مفجوعين، ونساؤها ثاكلات، أفيكثر علينا أن ننعم بالجلاء ؟ وهل أخذناه بعد ذلك منحة من الانكليز ؟

كلا ثم كلا، إنا أخذنا حقنا بعون الله ثم بعزائمنا، ولو والله عاد فاستلبه منا أهل الأرض مجتمعين لقارعناهم عليه ونازلناهم حتى نستميده كاملاً أو نموت دونه . وليس في الدنيا أقوى ممن يريد الموت، لأن الذي يريد الموت لا تخيفه وسائله ولا آلاته !

* * *

أستغفر الله ! اللهم إنا نبرأ إليك من أن نعتمد على أنفسنا، فانه لا حول ولا قوة إلا بك، اللهم لك الحمد وبك التوفيق، ولا اعتماد إلا عليك .

اللهم لك الحمد على أن أحييتنا حتى رأينا هذا اليوم العظيم، وشهدنا جيشنا يعرضه زعيمنا تحت علمنا ... فان هذه الفرحة تطغى على تلك الآلام ...

على أننا لم نعرض هذا الجيش الصغير الذي رباه الفرنسيون، وأعانهم على حرب هذا الوطن، ثم جاءنا تائباً فقبلنا من كرمنا توبته، واستغفرنا فغفرنا له حوبته، بل عرضنا الفصيلة الأولى من جيش المروءة، فرفرفت أعلامها فوق الصفوف، واجتمع فيها جنودها من أقطارها كلها[1] ... هذه بقية جيش الماضي الذي خفقت له تحت كل نجم راية، وسما له في كل رَبْع علم،

(١) إلا المغرب فك الله إسارَه .

وكتب له في كل معركة ظفر ، وهذه نواة جيش المستقبل الذي سيعيد بعون الله تلك الأمجاد .

لقد طالما رأيناه يعرض علينا هذا الجيش ، يعرضه سادة الأمس كما يعرض العلم الظالم عصاه على التلاميذ ، والطاغية الجبار سيفه . يقولون لنا : انظروا إلى قوة فرنسا ... واحذروا أن تفتحوا باسم الحرية أفواهكم ... وإلا نزلت هذه السيوف على أعناقكم ، وضربت هذه المدافع دوركم ، وكان هؤلاء الجند الذين هم أبناؤكم عونا عليكم ... فجاء رئيسنا يعرضه اليوم ، ليقول : انظروا إلى جيشكم الذي يذبّ عنكم ، ويحمي حريتكم ، إنه لكم !

فلا تلوموا دمشق إن هتفت كلها من قبل مطلع شمس يوم الجلاء لتشهد هذا العرض . إنه عرض مبارك ، التقى فيه أول مرة الإخوان الذين كانوا يتعارفون على السماع لا يعرف الأخ منهم أخاه ، فمشى فيه الجندي المصري إلى جانب العراقي ، والنجدي إلى جنب اللبناني ، والأردني مع اليماني ، مشوا جميعاً في طريق واحدة على قدم واحدة إلى غاية واحدة .

اسمعوا ، فهذه هي المدافع ترعد وتدوّي وتزلزل الجوّ رجّة واهتزازاً ! انظروا فهذه هي الطائرات تحوّم وتحمحم ، وتعلو وتنحط ، وتجيء وتذهب ، ولكن لا تفزعوا ، فانها لن تؤذيكم ، إنها ليست مدافع الفرنسيين التي تدمر ، ولا هي طائراتهم التي تصبّ الحمم ! لقد ذهب الفرنسيون ولن يعودوا . إنها مدافعنا نحن ، لقد صارت لنا ياقوم مدافع ... إنها طياراتنا ، لقد صار للعرب طيارات ، إنها أول مرة نسمع فيها المدافع تنطق بارادتنا وأيدينا ، ونرى الطيارات تعلونا فلا ترمينا بالقنابل التي فيها الموت بل بالقراطيس التي فيها السكر ، تسقط في مظلات صغيرة هدية من مصر ومن العراق ، وبشرى بأن أيامنا الآتية ستكون حلوة كالسكر .

فيا أيها الإخوان المصريون والعراقيون : شكراً شكراً . ويا إخواننا جميعاً لكم الشكر .

أنتم أفضتم على هذا العيد بهاءه . أنتم ألبستموه رونقه . أنتم جعلتموه أعظم وأجلّ ، حين جعلتموه (يوم العروبة) كلها ، لا يوم سورية وحدها ، وبكم بعد الله قوينا على حمل أثقال الجهاد ، وأعباء الظلم ، حتى منّ الله علينا فظفرنا ، وعليكم أنتم ستقف عرائمنا وأموالنا وسواعدنا ، وفيكم سنبذل مهجنا وأرواحنا ، حتى يمنّ الله على أقطار العربية كلها بالحرية كما منّ بها علينا ، بالحرية النقية التي لا تمكرها حماية ولا وصاية ولا انتداب ، إننا لن نلقى السلاح وفي الدنيا بلد إسلامي يحتله أجنبي !

وأنت يا علمنا ... اخفق مطمئناً ، فقد عدت إلى مكانك ، ولن تنزل منه أبداً . لن يغلبك عليه علم غاصب آخر ولو ظاهرته عفاريت الجن ومَرَدَة الشياطين وجاء معه بعشرة قنابل ذرّية ، لن يأخذه منك أبداً ونحن أحياء ، إلا علم (الوحدة العربية) أولاً ثم علم (الخلافة الإسلامية) ثانياً إذ يبقى فيه عالياً خفاقاً إلى يوم القيامة .

(دمشق) علي الطنطاوي

صدر حديثاً :

للأستاذ صلاح الدين المنجد

١ – دمشق القديمة

أسوارها ، أبراجها ، أبوابها

أحسن دراسة تظهر ماضي هذه المدينة الخالدة منذ نشأتها إلى العصر الحاضر ، مزودة بالصور والرسوم والتخطيطات .

٢ – بيمارستان نور الدين بدمشق

دراسة مفصلة عن نور الدين وآثاره في دمشق وبيمارستانه مع الخرائط والصور .

تطلب من مكاتب دمشق الشهيرة